أهل الكهف

في غرناطة ودمشق وبزنطية

وجدتُ ، أثناء اشتغالي بوضع فهرس عام للمخطوطات العربية في اسبانية ، مخطوطاً في المكتبة الوطنية بمدريد ، اسمه « كتاب الجغرافية في مساحة الأرض وعجائب الأصقاع والبلدان »[1] لم يثبت اسم مؤلفه عليه ، ولكن تبيَّن لي من قراءة المخطوط أنه أُلِّف في القرن السادس الهجري . وقد ساق المؤلف فيه نصاً ذا شأن ، يدلّ على أن الرواية الشعبية في غرناطة وما جاورها ، في القرن السادس ، كانت تذكر أن بقرب غرناطة كهفَ الرقيم ، وأن فيه أهلَ الكهف . وقد لفت هذا النص انتباهي ، لأن الرواية الشعبية تذكر أيضاً في دمشق ، حتى أيامنا هذه ، أن أهل الكهف هم في سفح قاسيون ، كما أن المصادر المختلفة تذكر أن أهل الكهف هم في بزنطية أو غيرها من البلدان .

إن تعدّد مكان مقدّس واحد في بلدان مختلفة ظاهرة تثير الانتباه . وأكثر الأماكن تعدّداً ما كان له صبغة دينية مقدّسة كقبور الأنبياء ، وقبور بعض الصحابة ، وقبور بعض آل البيت .

ففي دمشق يوجد رأس يحيى بن زكريا ، وفي حلب أيضاً .

ويقولون إن في مسجد دمشق قبر هود ، ويذكر ياقوت أنه بحضرموت .

ويزعمون أن في الكثيب الأحمر ، قرب مسجد القدم ، قبر موسى ، ويقولون إنه في فلسطين .

---

(١) انظر : F. G. Robles, *Catalogo de los Manuscritos Arabes existentes en la Biblioteca Nacional de Mabrid. p. 60*, No CXXI

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويجعلون قبر عائشة في قبة المال الغربية بمسجد دمشق ، وفي البقيع .
وقبر سُكينة بنت الحسين بدمشق وفي المدينة [١] .
الى غير ذلك من الأمثلة .

وتفسير ذلك أن كل بلدة من البلدان الإسلامية كانت تريد أن تختصّ بفضل يجعلها مباركة أو مقدّسة أو متقدّمة على غيرها . وهذا لون من ألوان التنافس بين البلدان الإسلامية الذي ظهر على أشكال مختلفة [٢] . فليس من الغريب أن تتعدّد أماكن الكهف فتدّعيه دمشق ، وغرناطة ، والبلقاء ، وبزنطية وغيرها .

ونودّ أن نقدّم هنا النصّ المتعلّق بكهف جبل شنيل قرب غرناطة ، ثم نقايسه بما ورد من نصوص تتعلق بكهف دمشق وكهف بزنطية .

قال مؤلف الكتاب :

« وفي أسفل هذا الجبل (هو جبل شنيل) ، من ناحية المغرب ، مدينةُ غرناطة عمرها الله . وهي مدينة عظيمة من أحسن بلاد الأندلس ، وبقرب منهـا باثني عشر فرسخًا الكهف الرقيم . وصورة هذا الكهف جُرُف عالٍ ..... وفيه خمس (كذا) أناس من بني آدم ، قد يبست جلودهم على أعظامهم ، إذا نقر من أحدهم طنّ طنينًا كالنحاس ، قد تقشّر من بعض جلودهم شيء بتقليب الناس لهم ، إلاّ الأوسط منهم فإنه لم يقشر . والكل منهـم قائم الذات لم ينفصل من أحدهم عظم واحد . وعند الأوسط منهم عظام كلب .

قال مؤلف هذا الكتاب : رأيتُ هذا الكهف عام اثنين وثلاثين وخمس مئة ، وعلى هؤلاء الأشخاص ملحفة من الكتان ، وعلى رأس كل واحد منهم شاشية . وهم في خلقتهم أعظم ما يكون من الناس في هذا الزمان . وقد يبسوا . وأما (آخر ص ١٧ من المخطوط) حين كانوا أحياء كانوا والله أعلم في أعظم خلقة .

(١) انظر عن هذه الأمثلة ياقوت ، معجم البلدان (مادة دمشق) ؛ والهروي في الزيارات ؛ والربعي في فضائل الشام ودمشق ؛ والعدوي في كتاب الزيارات

(٢) انظر الواناً أخرى من التنافس في مقدمتنا لكتاب فضائل الشام ودمشق للربعي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال المؤلف : قد عددتُ عظام هذا الكلب فلم ينقص شيء . ولقد رأيتُ في فِقار ظهره ثلاثة أو أربعة (كذا) منفصلة ، ومن مفاصله كذلك . ولولا تقليب الناس لهم ما تناثر من عظامهم <شيء> غير أنها لم تأكل الأرض منها شيء ...

وذكر أهل التاريخ : لما دخلوا المسلمين (كذا) الأندلس عام احدى وتسعين سألوا الروم عن الكهف والذين فيه . فقال علماء الروم والأساقفة : ما لنا بهم علم . غير أن آباءنا وأجدادنا أخبرونا أنهم لما دخلوا هذه البلاد سألوا أهلها عنهم ، فما كان فيهم من يعرف لهم خبرا ، وقالوا : هكذا وجدناهم حين دخلنا هذه الأرض ... ...

قال المؤلف : من أعجب ما رأيتُه ، ومن أغرب ما أبصرتُه في هذا الكهف ، أمرٌ إذا نُظر اليه بعين البصيرة ودُبِّر بالعقل ظهر فيه برهان أهل الكهف . وذلك أنه اجتمع في مدينة لوشة ـ وهي على مقربة من هذا الكهف ـ أقوام من أهل الفساد ، فجعلوا جُعلاً لمن يمشي لهذا الكهف ويأتيهم بامارة واضحة . وكان هذا كله بالليل . فخرج منهم رجل من أهل غرناطة فقطع أذن الأوسط وأتى بها الى أصحابه . فعندما دخل عليهم بالأذن صاح صائح حتى ارتعدت له لوشة ولم يبق فيها صغير ولا كبير إلا استيقظ ، وصاحبُ الصوت يُنادي : قد قُطعتْ أذن يمليخا من أهل الكهف ، وارتجَّت المدينة لذلك ، وأتى الناس كأنما قادهم قائد الى ذلك . فأخذوا الأذن منهم . وأخذ القومَ محمدُ بنُ سعادة ، وكان يومئذ صاحب الشرطة ، فضربهم بالسياط حتى هلكوا . فلما أصبح الله بخير الصباح سار محمدُ بن سعادة وجماعةٌ من الناس معه الى الكهف فوجدوا أذن الواحد منهم قد قُطعت ، وهو المعروف بيمليخا ، فخاطوها في موضعها ، وأمر محمد بن سعادة ببنيان الرقيم الذي كان على رأس الكهف . وذلك أنه كان عليه أثر مسجد قد دثر . فأقامه محمد بن سعادة وردّ محرابه الى القبلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك في آخر عام اثنين وثلاثين وخمس مئة .. (آخر ص ١٨ من المخطوط) اهـ .

فيظهر من هذا النص أن الناس بلوشة وما جاورها كانوا يعتقدون أن هؤلاء أصحاب الكهف ، وأن محمد بن سعادة[١] صاحب الشرطة أعاد بناء الكهف والمسجد . وأن علماء الروم وأساقفتهم كانوا لا يعلمون من خبرهم شيئاً عندما دخل المسلمون الأندلس عام ٩١ هـ ، وإنما سمعوا من آبائهم وأجدادهم أنهم وجدوهم على حالتهم تلك . ومعنى ذلك أن نسبة المكان الى أصحاب الكهف ، واعتبار الموتى فيه أصحابَ الكهف المذكورين في القرآن من صُنع المسلمين أنفسهم بتأثير ما ورد في القرآن الكريم[٢] .

★

أما كهف دمشق في جبل قاسيون ، فما تزال الرواية الشعبية ، المتداولة على ألسنة العامة ، تذكر أنه الرقيم ، وأن فيه أصحاب الكهف . وقد جاءت النشرة الجديدة لتاريخ دمشق تبطل هذه الرواية .

ليس بين أيدينا نصوص تصف هـذا الكهف وأصحابه ، إلا ما ذكره ابن عساكر[٣] . ومنه يظهر أن الكهف بُني في سنة ٣٧٠ هـ ، بناه أبو الفرج محمد بن عبد الله المعروف بابن المعلم ، المتوفى سنة ٤١٠ هـ . وعندما عدّ أبو الحسين الرازي الآثارات بمدينة دمشق[٤] لم يجعله فيها لأنه لم يكن بُني بعد . وكان اسمه كهف جبريل وكهف محمد . وعندما بدأ المقادسة يسكنون جبل قاسيون

---

(١) ترجم له ابن الأبار في التكملة . رقم الترجمة ٧٤٦ توفي محمد بن سعادة سنة ٥٦٦ هـ

(٢) ذكر ياقوت (مادة الرقيم) أن في برّ الأندلس أيضاً موضعاً يُقال له جنان الورد به الكهف والرقيم أيضاً ، وبه قوم موتى عدتهم ثلاثة عشر رجلاً .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، (المجلدة الثانيـــة ، القسم الاول) ص ١١١ — ١١٢ . (تحقيقنا)

(٤) المصدر السابق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان الكهف فيما وجدوه في السفح [١] . ولم يسمّ قطّ في النصوص القديمة إلا كهف جبريل ، حتى في المصادر المتأخرة ، فقد ذكره النعيمي ثلاث مرات في التنبيه بهذا الاسم [٢] . وكذلك ذكره ابن طولون . أما سبب بنائه فرؤيا رآها ابن المعلم [٣] . وقد تحدّث هو بنفسه عن ذلك فقال :

« بالله أعتصم من الكذب ، وأسأله أن يُنطق لساني بالصدق . رأيتُ جبريل عليه السلام في المنام ، فقال لي : إن الله تعالى يأمرك أن تبني مسجداً يُصلّى فيه له ، ويُذكر اسمُه ، وهو هذا . فقلتُ : وأين هذا ؟ فسار الى هـذا الموضع الذي أنا سميتُه كهف جبريل فقال : ها هنا . قلتُ : أنّى لي بذلك ؟ قال : إنّ الله تبارك وتعالى سيوفق لك من يُعينك عليه .

« قال أبو الفرج : وأنا سمّيتُه كهف جبريل عليه السلام ومسجد محمد ﷺ ، رأيتُهما في المنام فيه . وموضعٌ يُرى فيه جبريلُ ومحمد ... من أجلّ بقاع الأرض . وجبل دمشق هذا ما نبت شجرة قط ولا ظهر فيه ثمرة . فلما رأيتُ جبريل ومحمداً عليهما الصلاة والسلام أنبت الله تعالى ببركتهما الشجر ، وظهر فيه الثمر وأكل الناس ما لم يؤكل فيه قط . وصار مسجداً من مساجد الله تعالى يذكر فيه اسمه .. » اهـ .

فهذا النص يبطل الرواية الشعبية ، وأعتقد أن وجود كهفٍ في جبل قاسيون ،

---

(١) ابن طولون ، القلائد الجوهرية ١ : ٤١ (تحقيق دهمان ، دمشق ١٩٤٩)

(٢) النعيمي ، تنبيه الطالب (طبع باسم الدارس في تاريخ المدارس ، بتحقيق الأمير جعفر الحسني) ، انظر الزاوية الداودية ، والزاوية الهادية ، والتربة الكاملية

(٣) انظر ترجمة ابن المعلم في الوافي بالوفيات للصفدي ٣ : ٣٢٢ (تحقيق ديدرنغ دمشق ١٩٥٣)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتأثير القرآن في نفوس الناس دعاهما الى الاعتقاد بأن الكهف هو الرقيم (*) .

★

في بزنطية

أما كهف بزنطية فقد وردت عنه روايتان ، الأولى عن عُبادة بن الصامت في القرن الأول ، والثانية عن محمد بن موسى المنجم في القرن الرابع . وتختلف الروايتان في تحديد مكان الكهف . فيجعله عُبادة في جبل أحمر بالقرب من قسطنطينية ، وتجعله الرواية الثانية بين عمُّورية ونيقية على عشرة أيام من طرسوس .

الرواية الأولى : يقول عبادة :

« بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، سنة استُخلف ، الى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب . قال : فسرتُ حتى دخلتُ بلد الروم . فلما دنوتُ الى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم . فوصلنا الى دير ، وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرب في الجبل . فقلنا لهم : إنا نريد أن ننظر اليهم . فقالوا : أعطونا شيئاً . فوهبنا لهم ديناراً . فدخلوا ودخلنا معهم في ذلك السرب . وكان عليه باب حديد . ففتحوه ، فانتهينا إلى بيتٍ عظيمٍ محفور في الجبل ، فيه ثلاثة عشر رجلاً مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود ، وعلى كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم الى أرجلهم ، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك ، إلا أنها

(*) ليس الكهف هو الرقيم ، لا في القرآن الكريم ، ولا على ألسنة الناس ، بل قال المفسرون : الكهف : النقب المتسع في الجبل ، وما لم يتسع فهو غار ، قال القرطبي بعد أن سرد روايات في معنى الرقيم : ويظهر من هذه الروايات انهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث وذلك من نبل الملكة وهو قول مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم ومنه كتاب مرقوم .
وكيف يكون الكهف نفس الرقيم في القرآن وقد عطف فيه الثاني على الأول ، والعطف يقتضي التغاير ؟ فالكهف غير الرقيم (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كانت أصلب من الديباج . واذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافاً الى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة ، وخفافهم ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم يُر مثله . فكشفنا عن وجوههم رجلاً بعد رجل ، فاذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء ، واذا الشيب قد وَخَطَ بعضهم ، وبعضهم شبان سودُ الشعور ، وبعضهم موفورة شعورهم ، وبعضهم مطمومة ، وهم على زيّ المسلمين . فانتهينا الى آخرهم ، فاذا هو مضروب الوجه بالسيف ، وكأنه في ذلك اليوم ضُرب . فسألنا أولئك الذين أدخلونا عن حالهم ، فأخبرونا أنهم يدخلون اليهم في كل يوم عيدٍ لهم ، يجتمع أهل البلاد من سائر المدن والقرى الى باب الكهف فنقيمهم أياماً من غير أن يمسّهم احد ، فننفض جيابهم وأكسيتهم من التُراب ، ونقلّم أظافيرهم ، ونقصّ شواربهم ثم نُضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التي ترونها . فسألناهم : مَنْ هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان ؟ فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة ، وأنهم كانوا أنبياء بُعثوا بعصر واحد ، وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً . »[1]

إن هذه الرواية منقولة عن عبادة بن الصامت . وعُبادة هو ـ كما هو معروف ـ أحد النقباء الاثني عشر . ويذكر ابن سعد[2] انه « خرج الى الشأم حين غزاها المسلمون فلم يزل بالشأم الى أن توفي » في الرملة من أرض الشام سنة أربع وثلاثين . وورد أنه ذهب الى فلسطين ، أرسله اليها عمر ليعلّم أهلها القرآن فأقام بها الى أن مات[3] . وذكر أن عمر وجهه الى الشام قاضياً ومعلماً

(١) انظر ياقوت ، معجم البلدان (مادة الرقيم)
(٢) ابن سعد ، الطبقات ٣ / ٢ : ١١٣
(٣) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٥ : ١١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأقام بحمص ثم انتقل الى فلسطين ومات بها[1] ولكننا لم نجد من ذكر أمر إرساله الى ملك الروم .

وأما الرواية الثانية فنقلها محمد بن موسى - وكان الواثق وجهه الى بلاد الروم للنظر في أصحاب الكهف - قال : فوصلنا الى بلد الروم ، فاذا هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع ، وله مسرب من وجه الأرض ، فتدخل المسرب فتمرّ في خسف من الأرض مقدار ثلاث مئة خطوة فيُخرجك الى رواق في الجبل على أساطين منقورة . وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكّل بهم يحفظهم معه خصيّان ، واذا هو يحيدنا عن أن نراهم ونفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه . يريد التمويه ليدوم كسبه . فقلت : دعني أنظر اليهم وأنت بريء . فصعدتُ بمشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلماني فنظرت اليهم ، وإذا هم في مُسوح شعر تتفتت باليد واذا أجسامهم مطلية بالصبر والمرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم . غير أني أمررتُ يدي على صدر أحدهم فوجدتُ خشونة شعره وقوة ثيابه . ثم أحضرنا المتوكل بهم طعاماً وسألنا أن نأكل منه ، فلما أخذناه منه ذقناه وقد أنكرت أنفسنا وتهوّعنا ، وكأنّ الخبيث أراد قتلنا ، أو قتل بعضنا ليصحّ له ما كان يموّه به عند الملك أنه فعل بنا هذا الفعل أصحابُ الرقيم . فقلنا له : إنا ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك . فتركناه وانصرفنا[2] .

وهذا النص لا يذكر عدد أصحاب الرقيم ولا يذكر كلبهم . فضلاً عن أن قول محمد بن موسى « ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى » يشعر بأنهم لم يؤمنوا بأنهم أهل الكهف .

(١) ابن العماد ، شذرات ١ : ٤٠

(٢) ياقوت ، معجم البلدان (مادة الرقيم)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإذا استبعدنا دمشق ، لأن النص الذي نقلناه واضح أن الكهف الذي في جبلها كهف جبريل ، نجد أن النصوص التي نقلناها عن كهف غرناطة ، و كهف جبل الورد ، و كهفي بزنطية متضاربة . تتضارب في عدد الموتى ، ووجود الكلب وفقدانه ، وملابس الموتى ، وهيئاتهم ، وأماكن وجودهم . ولقد أنكر ياقوت ـ مثلاً ـ أن يكون عددهم ثلاثة عشر فقال : والصحيح أن أصحاب الكهف سبعة ، وإنما الروم زادوا الباقي من عظماء أهل دينهم وعالجوا أجسادهم بالصبر وغيره على ما عرفوه .. »

وكل ذلك يدل على أن مكان وجود الكهف غير ثابت . وأغلب الظن أن المسلمين ، كانوا ، بتأثير القرآن الكريم ، يحسبون كل كهف وجدوه في بلد من البلدان رقيماً ، ويظنون الموتى الذين يصادفونهم في الكهوف والمقابر الرومانية القديمة أصحاب الكهف المذكورين في القرآن . ومن هنا تعددت الأماكن ، وتعدد أصحاب الكهف .

الدكتور صلاح الدين المنجد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net